أضواء على رسالة الإمام الخميني قدس سره إلى غورباتشوف[1]

إبراهيم حسن*

مقدّمة

«إنّها وثيقة ورسالة نابعة من الشفقة، تزخر بالنصائح والحكم التاريخية، حذّر فيها الإمام الخميني قدس سره قادة الاتحاد السوفياتي من المخاطر التي تحيط بهم، وذلك من منطلق دركه العميق والواعي للواقع السوفياتي»[2].

هزّت العالم بأسره بمضمونها وبكلّ ما تحتويه من عناصر؛ فجاء توقيتها وظروف إرسالها من جهة، وشخصية المرسِل الذي عوّد العالم على الصدمات والمفاجآت من جهة ثانية، ومنصب المرسَل إليه وتمثيله لثاني أقوى قوة في العالم من جهة ثالثة، و... كلّ تلك العناصر اجتمعت لتجعل من الرسالة صفعة على خدّ الزمان، وهزّةً لضمير العالم كلّه، ولتعلن إطلاق ثورة عالمية أوسع، ثورة لله.

وعلى الرغم ممّا شكّلته من صدمة، فإنّ من اطّلع على نهج الإمام الخميني قدس سره والأبعاد الفكرية لثورته يعلم أنّ رسالته إلى غورباتشوف جاءت ضمن السياق الطبيعي لمشروعه، كيف لا؟ وهو الذي صرّح في غير موضع بتصدير الثورة الإسلامية من إيران إلى كلّ العالم، حيث يقول: «**لقد نهضنا جميعاً لإحياء الإسلام في هذا البلد، وسنعمل على تصديره إلى كلّ مكان إن شاء الله**»[3]. لا بل يعتبر أنّ تصدير فكر ونهج الثورة ونشر الإسلام في العالم هو الرسالة الأولى لمسؤولي الثورة الإسلامية: «**يجب على الشعب الإيراني العزيز - الذي يجسّد بحقّ الوجه الساطع لتاريخ الإسلام العظيم في عصرنا الحاضر - الصبر وتحمّل**

* طالب في الحوزة العلميّة - جامعة المصطفى صلى الله عليه وآله العالمية - فرع لبنان، السطح الثالث (مرحلة الماجستير).

١) صحيفة الإمام قدس سره، ج٢١، ص٢٠٢.

٢) وزير دفاع الاتحاد السوفياتي السابق: الجنرال ديميتري يازوف، (نقلاً عن مقال بعنوان: «**الإمام الخميني الشخصية والمنهج**»، نشر بتاريخ ٢٠٠٩/١/٢٥ على الموقع الالكتروني: تبيان www.tebyan.net).

٣) من حديثٍ له قدس سره في جمعٍ من الخطباء والوعاظ بتاريخ ١٩٨٠/١١/٥. راجع: تصدير الثورة كما يراه الإمام الخميني قدس سره، ص٤٥.

الصعاب والمعاناة لوجه الله؛ لكي يتسنّى لمسؤولي البلاد التفرّغ لرسالتهم الأولى المتمثّلة في نشر الإسلام في العالم»[٤]. ثمّ إنّ هذا كلّه يندرج ضمن المشروع المهدوي المتكامل: «**على مسؤولينا أن يعلموا بأنّ ثورتنا لا تنحصر بإيران وحدها. إنّ ثورة الشعب الإيراني ما هي إلا نقطة انطلاقة ثورة العالم الإسلامي الكبرى تحت لواء الإمام الحجة بن الحسن، أرواحنا فداه**»[٥].

لأجل هذا كلّه اكتسبت الرسالة أهميتها، ولأجل هذا اخترنا الرسالة لتكون موضوع دراستنا وتحليلنا؛ لا لندخل إلى تفاصيلها كافة، فهذا ما لا يتّسع له المجال، بل لنسلّط الضوء على المفاصل الأساسية التي تستوقف كلّ من اطّلع على تلك الرسالة، لنخرج منها بالدروس والعبر من مدرسة الإمام الخميني قدس سره، وما أعظمها مدرسة!

أولاً: مخطّط الرسالة

يمكن تقسيم الرسالة إلى الفقرات الآتية:

الفقرة الأولى: عبارة عن مقدّمة للرسالة، يعرب فيها الإمام قدس سره عن أمانيه بالسعادة للشعب السوفياتي، ويذكر أنّ الرسالة للتذكير ببعض القضايا، خاصّة وأن غورباتشوف قد تصدّى للتغيير.

الفقرة الثانية: يقدّر فيها الإمام قدس سره شجاعة غورباتشوف المتمثّلة في إعادة النظر بالمذهب الفكري، وإن كان ذلك محصوراً في بعض المشكلات الحزبية على ما يبدو.

الفقرة الثالثة: يدعو فيها الإمام قدس سره لإعادة النظر في سياسة السوفيات القائمة على محاربة الله واستئصال الدين، والتي سبّبت لهم أكبر المشاكل.

الفقرة الرابعة: يلفت فيها إلى ضرورة عدم الانغرار بالعالم الغربي الذي يواجه بدوره المشاكل نفسها، وهذا يعني أنّ اتباعه لن يحلّ المشكلة، بل سيزيدها تعقيداً.

الفقرة الخامسة: تشخيص مكمن المشكلة بالذات: فقدان الإيمان الحقيقي بالله.

الفقرة السادسة: ينعى فيها الشيوعية التي لا بد أن تتوجّه إلى متاحف التاريخ؛ لأنّها مذهبٌ مادي لا يلبّي شيئاً من احتياجات الإنسان المعنوية.

الفقرة السابعة: يخبر فيها الإمام قدس سره أنّ الشعارات الماركسية التي ما زال غورباتشوف يرفعها مغايرة لما يؤمن به حقيقةً، خاصةً بعدما سمع العالم «**صرير تهشّم عظام الشيوعية**».

٤) من بيانٍ إلى مهجّري الحرب المفروضة بمناسبة الخامس عشر من شعبان بتاريخ ١٩٨٩/٣/٢٢. راجع المصدر نفسه، ص٦١.
٥) م. ن. ص٦١.

الفقرة الثامنة: يبيّن فيها أنّ الدموع التي تفجّرت إثر سماع الأذان في الاتحاد السوفيتي تثبت أنّ الإسلام ما زال حياً في قلوب الناس.

الفقرة التاسعة: يبيّن الفارق بين الفلسفتين المادية والإلهية، ويذكر مثالين وجدانيين يثبتان ضرورة وجود شيءٍ آخر غير المادة، ممّا يعني بطلان الأساس الذي تقوم عليه الفلسفة المادية.

الفقرة العاشرة: يدعوه فيها إلى إصدار أوامره للمختصّين في العلوم الفلسفية، ليقوموا بتحقيقٍ في هذا المجال. ثمّ يذكر له علماء وكتباً للمناقشة، ويدعو هؤلاء المختصّين للمجيء إلى قم.

الفقرة الحادية عشرة: يدعو فيها للتحقيق بدقّة وجدّية حول الإسلام، لا لأنّ الإسلام بحاجة إليهم، بل لما يتضمّنه الإسلام من حلول لكلّ مشاكل البشرية.

الفقرة الثانية عشرة: ينتقد مقولة «**الدين أفيون الشعوب**».

الفقرة الثالثة عشرة: يختم بها الرسالة، ويعرض خدمات إيران العقائدية، ويؤكّد التزامها بمبادئ حسن الجوار.

ثانياً: العناصر المكوّنة للرسالة

أ-المرسِل: الإمام الخميني قدس سره وارث الأنبياء

الإمام الخميني قدس سره أشهر من أن يعرّف، لكنّ وقفتنا لا بدّ أن تكون عند موقع الإمام قدس سره الذي منه أرسل رسالته إلى غورباتشوف؛ فالإمام قدس سره لم يرسل من باب كونه عالم دين أو مرجعاً حتّى، كما أنّه لم يرسل من باب كونه مرشداً للثورة الإسلامية في إيران، بل أرسل من باب كونه الولي الفقيه بامتياز، وهكذا وجد الإمام الخميني قدس سره نفسه، بما له من الولاية، مكلّفاً بالدعوة إلى الدين الحنيف إلى جانب الدفاع عن مقدّساته وتعاليمه، دعوة قد ترقى في أسلوبها ومستواها إلى أسلوب ومستوى دعوات الأنبياء؛ ذلك أنّ «**العلماء ورثة الأنبياء**»[٦]، وهذا يعني بالتالي «**أنّ علماء آخر الزمان يرثون جميع الأنبياء؛ لأنّهم يرثون النبي صلى الله عليه وآله، والنبي صلى الله عليه وآله ورث جميع الرسالات والنبوات الغابرة**»[٧].

ولذلك فإنّ المتأمّل في الرسالة ومضمونها يتذكّر رسالة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله إلى كِسرى وإلى قيصر: «**أسلم تسلم**»، وهنا يقول الإمام الخميني قدس سره: «**إن التدبّر والتوجّه الجّاد**

٦) المجلسي، الشيخ محمد باقر: بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، ج١، ص١٦٤.
٧) آملي، الشيخ عبد الله جوادي آملي: الإمام الخميني قدس سره ثورة العشق الإلهي، ص٢٨٥.

إلى الإسلام يمكن أن ينقذكم من مشكلتكم». وكما ختم الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله رسالته بقوله: «**وسلام على من اتّبع الهدى**»، يختم الإمام قدس سره رسالته بذلك أيضاً؛ تماماً كما ختم النبي موسى عليه السلام دعوته إلى فرعون ﴿**قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى**﴾[٨].

ثمّ إنّ «**ما فعله موسى عليه السلام مع فرعون جاء امتداده في ما فعله الإمام الخميني قدس سره مع ميخائيل غورباتشوف**»[٩]، لا على مستوى الشكل فقط، بل على مستوى المضمون أيضاً، «**إنّ موسى لم يكن سوى راعياً للغنم، وعندما أمره الله بمواجهة فرعون كان وحيداً، إلا أن اعتماده على الذات ومواجهته الصادقة قد زلزلت حكومة فرعون**»[١٠].

هكذا تحدّث الإمام قدس سره عن موسى عليه السلام، وهكذا اقتدى به، فكانت رسالته مواجهةً لفرعون زمانه بروح موسوية، تجمع بين الجرأة والشجاعة وقوّة الحجّة ﴿**قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ**﴾من جهة، وبين البعد الفكري العميق والحرص على بيان العقيدة بأبلغ كلام ﴿**قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى**﴾[١١] من جهة ثانية، وبين الإخلاص والزهد الذي لم يتغيّر بعد الدعوة عمّا كان قبلها من جهة ثالثة.

وهذا ما تجلّى بالضبط في رسالة الإمام الخميني قدس سره: الجرأة والشجاعة، والبيان العقائدي الواضح والمتين، وإخلاص الإمام قدس سره في ذاته وزهده وبساطة عيشه، حتى أنّه «**حينما وفد «شيفارد نادزه»**[١٢] يحمل ردّ الرئيس السوفياتي إلى الإمام الخميني قدس سره، أذهله أن يرى أنّ هذا العملاق الصلب الذي يوجّه التحذيرات بصراحة عجيبة إلى قادة ثاني قوة في العالم، يعيش في بيت صغير بسيط في جماران، في غرفة لا تتجاوز مساحتها ١٢ متراً مربعاً، مكتفياً بوسائل وأثاث في منتهى البساطة، ودون وجود أي أثر من المراسم والتشريفات المعمول بها. أذهله أن يرى الإمام قدس سره جالساً باطمئنان واستقامة كالطود، يضع إلى جانبه نسخةً من القرآن الكريم وسجادة صلاة ومسبحة وعدداً من الصحف ومذياعاً صغيراً[١٣].

٨) طه:٤٧.
٩) آملي، م.س.، ص٢٨٦.
١٠) صحيفة الإمام، ج١٠، ص١١٢.
١١) طه: ٥٠.
١٢) وزير خارجية الاتحاد السوفياتي.
١٣) أنصاري، حميد: حديث الانطلاق، ص١٦٨.

ثمّ إنّ المتأمّل في أسلوب الرسالة ومضمونها[١٤] يرى وراثة الإمام قدس سره للأنبياء عليهم السلام، فتجد النبي إبراهيم عليه السلام في خطابه لأبيه آزر[١٥] يكرّر من قوله: يا أبتِ[١٦]. وهذا ما قام الإمام قدس سره بتطبيقه في رسالته؛ مكرراً لقوله: «**السيد غورباتشوف**». ولعلّ هذا الأسلوب إنّما هو للإخبار بأنّ الرسالة ليست رسالة دبلوماسية بحتة ليقوم المرسَل إليه بالرد السياسي الشكلي والتقليدي، بل هي رسالة إلى روح المتلقي ووجدانه؛ ليؤثّر عليه، وليحدث ثورةً في داخله من الأعماق.

ومع التأمّل في أسلوب دعوة النبي هود عليه السلام - مثلاً- نجد أنّ محور دعوته هو بيان أهمية الإيمان بالله تعالى والآثار التكوينية للخضوع والتسليم لله، إذ يقول: ﴿**وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ**﴾[١٧].

وعلى هذا المنوال سار الإمام الخميني قدس سره حين بيّن أن الإسلام هو الحلّ الوحيد للمشاكل الاقتصادية والاجتماعية التي يعاني منها الاتحاد السوفياتي، بل هو الحلّ لكلّ مشاكل البشرية.

وهكذا نجد أنّ الإمام قدس سره إنما سار على خطى الأنبياء عليهم السلام وتعاليمهم، ليثبت بحقٍّ أنّه لم يكن محقّقاً لحلم الأنبياء فحسب، بل وارثاً لهم بكلّ معنى الكلمة.

أ- المرسَل إليه

هو ميخائيل غفيتش غورباتشوف، الذي لم يكن رئيساً لدولة عظمى وحسب، بل إمبراطوراً يتربّع على عرش شرقي أوروبا وشمالي آسيا اللذين يحتلان مساحة تتجاوز ربع مساحة الكرة الأرضية على أقلّ تقدير، فيما تنتشر مصالحهما في جميع أرجاء العالم من دون استثناء، وهكذا فإنّ الرسالة موجّهة إلى الشخص الذي كان يملك فعلياً أعظم سلطة سياسية على وجه البسيطة، كما يملك من القوّة العسكرية ما يكفي لتدمير عدّة كواكب بحجم الكرة الأرضية، والذي يمسك بمقاليد الأيديولوجية التي أمكن فرضها على الناس منذ أكثر من سبعين عاماً.

١٤) وإن كانت هذه الفقرة مرتبطة بالمضمون، إلا أنّها تعكس جانباً كبيراً من شخصية الإمام قدس سره الوارث للأنبياء، فلذلك أدرجت هنا.

١٥) مع الإشارة إلى أنّ الأبوة هنا جاءت بمعنى زوج الأم، وإلا فالمختار من التفسير أنّ آزر لم يكن أباً لإبراهيم عليه السلام بمعنى الوالد.

١٦) ورد هذا الحوار في سورة مريم في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾.

١٧) هود: ٥٢.

ونحن حين ندرس هذه العناصر المكونة لشخصية غورباتشوف ومنصبه، إنّما ندرسها من باب كونها ذات مدخلية في فهم أبعاد الرسالة وفهم مغزاها، وإدراك الهدف الذي كان الإمام الخميني قدس سره يرمي إليه.

فمن جهة يقول له إنّك مع ما تملك من جاه وسلطة، قد أثبتّ فشلك في إدارة شؤون البلاد، ولا محيص لك عن الرجوع إلى الإسلام وتعاليمه. ومن جهةٍ أخرى نعلم أنّ المرسَل اليه لم يكن غورباتشوف وحده، بل قيادة المعسكر الشيوعي كله، ومن ثم قيادات العالم ومن ورائها شعوب الكرة الأرضية كافة، فخضوع السلطات السوفياتية للإسلام سيؤدّي إلى خضوع أبناء شعبها له، كما سيؤدّي إلى إحداث هزّة بل زلزال عالمي يمسّ أعماق كل فردٍ من أفراد البشرية.

هذا، وإن كان الأرجح أنّ الاتحاد السوفياتي لن يعير اهتمامه لمضمون الرسالة، إلا أنّ نفس إرسال الرسالة له من الأثر البالغ الأهمية، ولماذا؟ لأنّ المرسَل إليه لم يكن شخصاً عادياً بنظر العالم، ولا كان ممثلاً لسلطة عادية، بل ولا حتّى مجرّد سلطة ذات مساحة وسكّان وقوة ونفوذٍ كبير فحسب؛ إنّما كان ممثلاً لسلطة طالما طرحت أيديولوجيتها على أنها الحلّ النهائي والوحيد لكلّ مشاكل البشر، فإذ بها تنهار أمام أنظار كلّ البشر، وتنهار معها نظرياتها وأفكارها، ليثبت هذا الانهيار الكبير للسوفيات وللعالم أنّه لا محيص عن الإسلام،نعم، لا محيص عن الإسلام!

ب- زمن الرسالة

أرسل الإمام روح اللّه الخميني قدس سره رسالته إلى غورباتشوف بتاريخ الثاني والعشرين من جمادى الأولى، سنة ١٤٠٩هـ (١٩٨٨/١١/١م)، وقد وصل الوفد الذي حمل الرسالة إلى موسكو في الرابع والعشرين من جمادى الأولى ١٤٠٩هـ (١٩٨٨/١١/٣). وكان برئاسة آية الله الشيخ عبد الله جوادي آملي، وعضوية السيد محمد جواد لاريجاني والسيدة مرضية حديده جي (دباغ)[١٨].

هذا ما يذكره لنا التاريخ عن زمان إرسال الرسالة، لكن الأهمّ في مجال البحث هو دراسة الظروف المحيطة بإرسال الرسالة، وهذا ما سوف نتطرّق إليه بالنسبة إلى الظروف المحيطة بالجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة، والظروف المحيطة بالاتّحاد السوفياتي:

١٨) راجع صحيفة الإمام قدس سره، ج٢١، ص٢٠٦.

الظروف المحيطة بالجمهورية الإسلاميّة الإيرانيّة:

جاء إرسال الرسالة بعد انتهاء الحرب المفروضة بين حزب البعث (الصدامي) وإيران، وموافقة إيران على القرار رقم ٥٩٨[١٩]. من هنا فقد سعى المراقبون السياسيون المرتبطون بالاستكبار العالمي ووسائل الدعاية التابعة لهم، إلى تصوير موافقة إيران على القرار الدولي رقم ٥٩٨ أنها ناتجة عن تزعزع القناعات الاعتقاديّة لدى المسؤولين التنفيذيين، وخفوت بريق شعارات الثورة الإسلامية، فروّجوا لهذا الادعاء بكثافة، فيما عمد أعداء الإسلام إلى إنعاش قلوبهم بأماني تحجيم الثورة الإسلامية داخل حدود إيران وانحسار تأثيراتها الخارجية[٢٠].

ولعلّ هذا التوقيت دفع بالقادة السوفيات - أيضاً - إلى تصوّر أن الرسالة تتضمّن مجموعة من المطالب أو الدعوات للتعاون الاقتصادي أو مساعداتٍ مالية وما شابه. «**كان يُتصوّر أنّ هناك دعوة للتعاون الاقتصادي وطرح مسائل مثل النفط والغاز.. لقد كانت تصوّرات مسبقة أعدّوا لها أجوبة حاضرة، لكنّه (أي غورباتشوف) عندما أصغى إلى رسالة الإمام**قدس سره **ودعوته إيّاه إلى الإسلام، تبدّدت كلّ تصوّراتهم وأوهامهم كسرابٍ أو كضبابٍ بعد شروق شمسٍ دافئة**»[٢١].

لكن بما أنّه لم يكن هناك ارتباط بين انتهاء الحرب المفروضة ومضمون الرسالة، لماذا أرسل الإمامقدس سره رسالته في التاريخ المعلوم ولم يعمد إلى إرسالها بعيد انتصار الثورة؟

قد يمكن الإجابة بأنّ انتهاء الحرب شكّل فرصةً للتفرّغ للتواصل الخارجي والدعوة إلى الإسلام، لكنّ التحليل يقلّل من أهمّية هذا العامل، خاصةً وأنّ الإمامقدس سره اقتصر في إرسال رسالته على الاتحاد السوفياتي، ولم يعمد إلى إرسال رسالاتٍ مشابهة إلى دولٍ أخرى كالولايات المتحدة الأميركية مثلاً.

من هنا نذهب إلى أنّ التوقيت كان مرتبطاً بظروف المرسَل إليه لا ظروف المرسِل، ومن هنا ننتقل إلى دراسة ظروف الاتحاد السوفياتي عشيّة إرسال الرسالة.

١٩) القرار٥٩٨ هو القرار الصادر عن الأمم المتحدة، والقاضي بإنهاء الحرب بين العراق وإيران، وقد وافقت إيران على هذا القرار مكرهةً، لا لشيء إلا رغبةً منها في إنهاء حربٍ دامت أكثر من ثماني سنوات وحصدت الآلاف من الأبرياء.

٢٠) عن مركز الشؤون الدولية في مؤسسة الإمام الخمينيقدس سره الثقافية.

٢١) آملي، م.س.، ص٢٩٥.

ظروف الاتحاد السوفياتي حينها

قرّر الشيوعيون بعد ثورتهم سنة ١٩١٧ تحويل الكنائس والمساجد إلى زرائب للحيوانات[٢٢]، ولكنّهم ما لبثوا أن تراجعوا، وحاولوا القضاء على الفكر الإلهي وعلى ممارسة الشعائر الدينية، وظنّوا أنّهم بذلك خلقوا الإنسان الشيوعي الملحد في كلّ الاتحاد السوفيتي، ولكن ما إن ارتفع الكابوس وسمح بممارسة الشعائر الدينية حتى تدافع المؤمنون إلى المساجد بقلوب ملؤها السرور وعيون دامعة من الفرح.

وقد تحقّق ذلك بعدما وصلت البلاد إلى الطريق المسدود على صعيد التطور الاقتصادي، حيث شلّها ما سُمّي بأوالية الكبح على الصعد كافة، وبعدما بلغ الغليان في الاتحاد وفي سائر بلدان العالم الاشتراكي درجة الانفجار الذي ينذر بإطاحة النظام كلّه وبفرط الاتحاد[٢٣]، ولم يكن انفصال ليتوانيا وانتفاضة أذربيجان إلا المقدّمات لما سيحصل[٢٤]. الأمر الذي دفع القيادة السوفياتية إلى استباق الأمور قبل انطلاق المارد الجماهيري.

من هنا فقد أتت الرسالة في آونة بدأ فيها غورباتشوف بإعادة النظر في البناء وفي النهج السابقين في الاتحاد السوفياتي، وبتطبيق ما سُمّي بالروسية «**البيريسترويكا**» أي إعادة البناء الشامل على كلّ المستويات.

وهكذا أتى لفت النظر من قبل الإمام قدس سره في مرحلة لجوء القيادة السوفياتية إلى تلمّس المخارج من الأزمة الخانقة المهدّدة بإطاحة كلّ شيء، لعلّ تلك القيادة إذا كانت جادّة فعلاً في التفتيش عن الحلول، تستفيد من النظم الإسلامية والحلول الإلهية الحقيقية، وإلا فإن الإمام القائد قدس سره يكون قد قام بتكليفه الشرعي من باب ﴿**وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾[٢٥][٢٦].

٢٢) راجع: تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر،ج٣، ص١٩٤.

٢٣) تولّى غورباتشوف نفسه تفصيل ملامح الضعف في الاتحاد السوفيتي في كتابه «البريسترويكا». ومن أهمّ ما كشفه الزعيم السوفيتي في هذا الصدد الأمور التالية: على الصعيد الأيديولوجي:جمود القيادة، المركزية الشديدة، التكلّس الفكري أو ما يسمّيه الجمود العقائدي.... على الصعيد الحزبي والإداري: تفشّي البيروقراطية والروتين واللجوء الى الشعارات المفخّمة... على الصعيد الاقتصادي: تدهور الإنتاج كمّاً ونوعاً، تفاقم الهدر، فرض الأسعار بشكل متعسّف... على الصعيد الاجتماعي: تقوّض القيم، عدم احترام العمل، ضعف الشعور بالتضامن، والنزوع إلى الإثراء... بالإضافة إلى غيرها الكثير من المشاكل التي ذكرها غورباتشوف مفصّلاً في كتابه السابق الذكر: «**البريسترويكا**».

٢٤) راجع تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ج٣، ص١٨٤.

٢٥) النور: ٥٤.

٢٦) طي، د. محمد: قراءة متجددة في رسالة الإمام الخميني الى غورباتشوف، مقالةٌ نُشرت على الانترنت على موقع الولاية الالكتروني www.wilayah.net.

هـ- الهدف من الرسالة

إنّ تحليل العناصر الداخلية والخارجية للرسالة يوصلنا إلى أنّ إرسال الرسالة ينطوي على عدّة أهداف، قد يبدو أنّ أهمّها تصدير الثورة - الثقافية بالدرجة الأولى- ونشر الإسلام، أي إنّ هدفه كان متوجّهاً إلى داخل غورباتشوف، ومن ورائه أبناء الاتحاد السوفياتي بل العالم أجمع، ولعلّ هذا ما عبّر عنه الإمام‌قدس‌سره حين لقائه بـ «**ادوارد شيفارد نادزه**» وزير خارجية الاتحاد السوفياتي آنذاك[٢٧]، الذي زار الإمام‌قدس‌سره حاملاً له رد غورباتشوف على رسالته، وبعد كلام لشيفارد نادزه اكتفى الإمام‌قدس‌سره بكلمات صرّح فيها غايته من الرسالة، منها: «**أردت أن أضع أمامكم آفاقاً أوسع. كنت أرغب أن أفتح نافذة أمام السيد غورباتشوف تطلّ على عالم كبير، أي عالم ما بعد الموت، وهو عالمٌ خالد. المحور الأصلي في رسالتي هو هذا**»[٢٨].

لكن ما نودّ الإشارة إليه هو أنّ هذا الهدف - على أهميته البالغة - يبدو أنّه ليس الهدف الأساس للرسالة، بل تنطوي الرسالة على هدف أكبر وأهمّ.

عند التعمّق في نهج الإمام‌قدس‌سره ومدرسته الفكرية، نجد أنّ الإمام‌قدس‌سره طالما أكّد على أنّ الإسلام دين سياسي واجتماعي بامتياز. وقد سعى الإمام ليكرّس هذه الفكرة من خلال جهاده الفكري والعملي، بدءاً ممّا طرحه من أبحاث حول ولاية الفقيه، وصولاً إلى إقامة الحكومة الإسلامية التي طالما أكّد الإمام‌قدس‌سره أنّ تشريعاتها وقوانينها لا بدّ أن تكون مستمدّة من الشريعة الإسلامية، والشريعة بدورها كافية في هذا المجال؛ لشمولها لكلّ متطلّبات البشرية.

من هذا المنطلق فإنّنا ندّعي أنّ الهدف الأهمّ من الرسالة كان تكريس فكرة أنّ الإسلام دين سياسي وحكومتي بامتياز.

والدليل الأبرز على هذه الدعوى هو فحوى الرسالة ومضمونها؛ فلم يطرح الإمام الإسلام على شخص غورباتشوف بما هو شخص، بل بما هو رئيسٌ يُفترض أن يكون طرح الإسلام أمامه طرحاً ليكون دين الحكومة ككلّ. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الإمام‌قدس‌سره أشار في رسالته إلى أنّ الإسلام يتضمّن الحلول لمشاكل الاتحاد السوفياتي، حيث يقول: «**أطلب منكم أن تحقّقوا بدقّة وجدّية حول الإسلام؛ ليس لأنّ الإسلام والمسلمين بحاجة إليكم؛ بل لما يتضمّنه الإسلام من قيم سامية، ولما يمتاز به من شمولية**

٢٧) اللقاء كان بتاريخ ١٩رجب ١٤٠٩هـ.
٢٨) صحيفة الإمام‌قدس‌سره، ج٢١، ص٢٧٢.

بحيث يستطيع أن يكون وسيلة لراحة وإنقاذ الشعوب، وحلّ كافة الأزمات الأساسية التي تعاني منها البشرية. إن التدبر والتوجه الجادّ للإسلام يمكن أن ينقذكم من مشكلتكم في أفغانستان وأمثالها في العالم...»[٢٩].

وهذا يعني أنّ الإسلام يتضمّن نظرياتٍ ومبادئ سياسية بامتياز، ولا يقتصر على حدود الدائرة الفردية.

صحيحٌ أنّ الإمام قدس سره قام بإثبات هذه الفكرة من خلال إقامة الحكومة الإسلامية في إيران، لكنّ طرح الإسلام كحلّ لمشاكل دولة بمستوى الاتحاد السوفياتي له من الأثر البالغ في مجال تكريس الفكرة المذكورة، خصوصاً بعد نفاد الأيديولوجيات التي طرحت نفسها كوسائل لتحقيق السعادة للبشرية، ومنها أيديولوجية النظام الشيوعي.

ثالثاً: ما بعد الرسالة

لم تكن الرسالة رسالة عادية، ولذلك فإنّ نتائجها لم تكن نتائج عادية أيضاً؛ لقد جاءت تداعيات الرسالة سريعةً إلى المستوى الذي صعقت فيه العالم أكثر ممّا صعقته الرسالة نفسها.

فعلى الرغم من إخفاء محتوى الرسالة التاريخية عن أبناء الشعب السوفياتي من قبل قادة الكرملين ووسائل إعلامه، وإصداره أوامر بمنع انتشارها في الجمهوريات التي يقطنها المسلمون في الاتحاد السوفياتي السابق، إلا أنّ الشباب المسلمين في تلك الجمهوريات استقبلوا رسالة الإمام قدس سره بتفاعل لا يمكن وصفه، الأمر الذي ساهم بدور مهمّ في زيادة تطلّع مسلمي تلك المناطق نحو الإسلام، حيث قام شبابها المسلمون بتكثير مئات الآلاف من نسخ هذه الرسالة بصورة سرية وتوزيعها في كافة أرجاء الاتحاد السوفيتي[٣٠]، ثمّ ما لبث مسلمو الاتحاد السوفياتي أن انتفضوا تأكيداً لتمسّكهم بالإسلام الذي طرحه الإمام قدس سره على غورباتشوف.

من ناحيةٍ أخرى، وبعد وفاة الإمام قدس سره بقليل خطا غورباتشوف الخطوة الحاسمة على طريق إزالة النظام الاشتراكي من الاتحاد السوفياتي، فأقرّت التعدّدية الحزبية وألغيت النصوص الدستورية التي تكرّس الدور القيادي للحزب في النظام السياسي، وذلك في

٢٩) صحيفة الإمام قدس سره، ج٢١، ص٢٠٦.
٣٠) عن مركز الشؤون الدولية في مؤسسة الإمام الخميني الثقافية، نقلاً عن موقع السراج الالكتروني: www.alseraj.net.

شهر آذار لسنة ١٩٩٠ وأصبحت أثراً بعد عين[٣١]، وهي التي كانت من أهمّ الأسس التي أرساها المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي السوفياتي منذ حوالي ثلاثين عاماً، ذلك المؤتمر الذي بشّر بدخول المرحلة الشيوعية بشكل متدرّج، فإذا بالظروف تفرض التراجع عن ديكتاتورية الحزب وعن دوره القيادي لدولة «**الشعب بكامله**» التي ورثت دولة ديكتاتورية البروليتاريا التي أنجزت مهماتها المزعومة في العصر الستاليني.

وما حدث واقعاً كان نتيجةً من نتائج رفض مضمون رسالة إمام قدس سره، هذا الرفض الذي لم يعرف السوفيت والعالم خطورته ومضارّه الجسيمة إلا بعد أن رأوا بأمّ العين انهيار الاتحاد السوفياتي وكلّ نظريات الشيوعية.

الملفت في الأمر أنّ غورباتشوف - وبعد مرور ١١ سنة- أظهر أسفه الشديد على عدم سماعه تحذيرات الإمام الخميني قدس سره وقال خلال مقابلة صحفية: «**إن رسالة الإمام الخميني إعصار على مر التاريخ... إن كنّا قد أنصتنا لهذه الرسالة وأخذناها على محمل الجد لما كنّا وصلنا إلى ما نحن عليه الآن. هذا الابتعاد عن القيم الدينية أغرق أميركا والغرب في متاهات كثيرة، لكن حتّى الآن لم تدرك تلك القوى بعد عمق المفاهيم التي قالها الإمام**»[٣٢].

٣١) راجع تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، ج٣، ص٢٠٧.

٣٢) برومند، حسام الدين: وقد حلّ ربيع الأمم، ترجمة هاني زعيتر، والمقال نشر على الموقع الالكتروني: إسلام تايمز بتاريخ ٢٠١١/٦/٣٠.

السلام عليك يا روح الله